

الزلافة معركة من معارك الإسلام الحاسمة

في الأندلس

المؤلف: جميل عبد الله محمد المصري

أستاذ مشارك بالجامعة الإسلامية

معركتان كانتا في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري: ملاذكرد (منزكرت) في آسيا الصغرى التي قررت مصير آسيا الصغرى عام ٤٦٣ هـ، والزلافة على أرض الأندلس الشهيدة التي أوقفت الزحف الصليبي النامي إلى حين، عام ٤٧٩ هـ. فكانت الزلافة يوماً مشهوداً من أيام الإسلام، محت العار الذي لحق ملوك الأندلس من مذلة الفونسو السادس لهم وكان يوماً لم يُسمع بمثله من اليرموك والقادسية، فياله من فتح، ما كان أعظمه، ويوم كبير ما كان أكرمه فانتعشت النفوس وقوت الآمال، فأعدت للوجود الإسلامي اعتباراته، وكان يوشك على الأفول، وأظهرته من جديد في ثوب قشيب رائع، ليواصل حياته الجهادية مدى قرون أخرى. وحررت الزلافة سرقسطة وحمتها من الوقوع بأيدي القوى الصليبية التي كانت تحاصرها عند نزول قوات المرابطين بالأندلس. ورفعت من شأن المرابطين وأميرهم يوسف بن تاشفين أمام الرأي العام الإسلامي، بجهادهم وذبحهم عن ثغور الإسلام، واتجهت أنظار المسلمين إليهم للتخلص من أمراء الطوائف، فاتخذ يوسف صورة المنقذ للمسلمين في الأندلس، فمهد ذلك لإسقاط ملوك الطوائف، وضم الأندلس إلى دولة المرابطين في المغرب لحمايتها من هجمات النصارى

عادل محمد

مدخل

الحمد لله الذي جعل أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس، أمة جهاد في سبيله، وأمة رحمة وهداية للعالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، النموذج العملي لرسالة الإسلام وعقيدته، جعله الله سبحانه وتعالى شهيداً على أمته، وجعل أمته شهداء على الناس، ورضي الله عن صحابته الطاهرين، ومن قام بهديه إلى يوم الدين وبعد:

فإن المعارك العالمية التي سجلها التاريخ كثيرة، تلك التي تمخضت عنها تغييرات شاملة، ذات نتائج خطيرة، وتبقى معارك الإسلام من أشهرها وأهمها، ذلك لأن المعركة في الإسلام ليست غاية في ذاتها، فهي محصلة لأمر كثيرة، إذا وصلت إلى حد معين لا بد من معركة حربية، ومفهوم الجهاد واضح المعنى وواضح الهدف، هو قتال في سبيل الله، يهدف إلى تبليغ الدعوة، ومدّها، أو تثبيتها والدفاع عنها، فإذا وصلت الأمور حاجزاً لا مجال لاختراقه بوسيلة أخرى كانت المعركة، ولا بد من الصبر عليها، ومن هنا فإن معارك الإسلام تخدم الدعوة في الدرجة الأولى امتداداً أو دفاعاً أو تثبيتاً. ومنذ معركة بدر الفاصلة -الفرقان- التي قادها سيد الخلق محمد ﷺ، والمسلمون يحاولون الوصول في معاركهم إلى مستواها في أهدافها ومعانيها، وتنظيمها، ونتائجها. فكانت معركة خيبر في عهده صلى الله عليه وسلم، التي وضعت حداً نهائياً لتسلط اليهود في بلاد العرب، ثم كانت اليرموك التي قررت مصير بلاد الشام ومصير الإمبراطورية الرومانية كلة، والقادسية التي قررت مصير العراق وبلاد فارس وإمبراطورية الفرس.

وهكذا تتابعت معارك الإسلام وتناحرت، إلى أن كانت في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري معركتان: ملاذكرد (منزكرت) في آسيا الصغرى التي قررت مصير آسيا الصغرى عام ٤٦٣ هـ، والزلافة على أرض الأندلس الشهيدة التي أوقفت الزحف الصليبي النامي إلى حين، عام ٤٧٩ هـ. فقد ساءت حالة العالم الإسلامي في بداية القرن الخامس الهجري شرقاً وغرباً، فعم الرفض، وفشا التفرق في المغرب بسقوط الخلافة الأموية وتمزق الدولة العامرية، ولكن الله سبحانه وتعالى هياً للمسلمين: السلاجقة في المشرق، حيث بلغت دولتهم ذروة القوة في منتصف القرن الخامس الهجري. والمرابطين في المغرب، وبلغت ذروتها في الوقت ذاته. وكلتا القوتين اتخذت الجهاد سبيلاً لإعزاز الإسلام والمسلمين ونصرة الدين. وكلتاهما مد الإسلام إلى آفاق واسعة. فقد مد السلاجقة الإسلام في آسيا الصغرى وأصبحت من ديار الإسلام، ومد المرابطون الإسلام إلى أفريقية الغربية وعبر الصحراء إلى السودان، وقاموا بواجبهم في نصرة إخوانهم في الأندلس، وحماية الإسلام.

**حالة المغرب والأندلس
في النصف الأول من القرن الخامس الهجري
التي هيأت لمعركة الزلاقة**

أولاً شمال أفريقيا ودولة المرابطين في المغرب

انتشر ملك الخلافة بالمغرب ١، وانقسم إلى إمارات صغيرة متفرقة، فقد أقام المعزّ بن باديس سنة ٤٤٠ هـ الدعوة للقائم بالله الخليفة العباسي وخلع طاعة المستنصر العبيدي، (وكان قبل ذلك يسب بني عبيد سراً)، فبعث المستنصر القبائل العربية من بني هلال ورياح وزغبة لمحاربتهم، فكانت الحروب الهائلة بين ابن باديس والعرب الذين دخلوا القيروان ٢. وكثر المتغلبون على الشمال الأفريقي بأجمعه، فاستولى بنو هلال على المناطق الممتدة في الداخل من قابس إلى المغرب، وظل بنو زيري يحتفظون بالمهدية وما يليها، واستقر أمر بني حماد في بجاية، واستقل حمو بن ومليل البرغواطي في صفاقس بعد أن حالف العرب، واستقل ابن خراسان بتونس سنة ٤٥٨ هـ، واستقل موسى بن يحيى بفاس، وحاكم قفصة الزيري بعد أن استعان بالعرب مقابل جزية سنوية ٣. كما تعرض الشمال الأفريقي لغارات النورمان يدفعهم الحقد الصليبي، فقد تملكوا

١ نفح الطيب ج ١ ص ١٣٠

٢ المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ٨٤ - ٨٥ / ابن خلدون ج ٦ ص ٢٨٨

٣ المغرب الكبير - السيد عبد العزيز - ص ٦٧٣.

صقلية من المسلمين بقيادة رجار سنة ٤٦٤ هـ ١، ماعدا مدينتي قصريناه وجرنت، اللتين حاصروها حصاراً شديداً، واستسلمت جرنت سنة ٤٨١ هـ، وتبعها قصريناه سنة ٤٨٤ هـ ٢. وشجع البابا فكتور الثالث على تكوين طائفة من رجال البحر من بيزه وجنوة للإغارة على السواحل الإسلامية الأفريقية، فهاجموا مدينة المهدية وزويلة، وعادوا بعدد عظيم من أسارى المسلمين رجالاً ونساء ٣ وبمبلغ عظيم من الذهب والفضة مقابل رحيلهم وذلك سنة ٤٨٠ هـ. وفي هذه الظروف الحالكة انبعثت من قلب الصحراء الكبرى الأفريقية، قوة إسلامية، تدعو إلى التمسك بالإسلام، مصدر قوة المسلمين، وتجدد جريان الحياة في تياره، باتخاذ دستوراً يحكم حياة الإنسان في جميع نواحي الحياة.

فقد توجه يحيى بن إبراهيم الجدالي - أمير جدالة - في جماعة إلى الحج ٤ عام ٤٤٠ هـ، وعرجوا في عودتهم على القيروان، واستمعوا إلى علمائها، وكانت في هذه الفترة قد نبذت المذهب الشيعي، وعادت إلى أهل السنة والجماعة، فاسترجعت مكانتها كقاعدة للمذهب المالكي في المغرب، فاتصلوا بأبي عمران موسى الفاسي شيخ المذهب المالكي ٥، وطلبوا منه أن يرسل معهم عالماً يعلمهم الدين، فأرسل معهم الشيخ عبد الله بن ياسين الجزولي ٦ وكان من حذاق الطلبة ومن أهل العلم والصلاح، واعتبر عمل هذا جهاداً لنشر تعاليم الإسلام الصحيحة بين الذين حرّموا من نعمة المعرفة والعلم. فقام بدوره، فأخذ يفتي الناس ويعلمهم الشريعة، وأقام رباطاً يرجح إن مكانه في السنغال ٧ أو النيجر، والتف حوله جماعة من لمتونة إحدى بطون صنهاجة كجدالة من البرانس البربر؛ بلغ عددهم حوالي الألف رجل، أطلق عليهم اسم (المرابطون) نسبة إلى رباط عبد الله بن ياسين، حيث تلقوا فيه تكوينهم الديني والجهادي، وحوّلهم من رعاة إبل إلى جماعة من المجاهدين، يحملون

١ ابن خلدون ج ٤ ص ٤٥٠ / المؤنس ص ٨٩.

- ٢ الكامل في التاريخ ج ٨ ص ١٥٧.
- ٣ ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٨.
- ٤ المؤنس ج ٤، ١٠، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ج ٢ ص ٦.
- ٥ ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٣/ البيان المغرب ج ٣ ص ٢٤٢ وأبو عمران أصله فاسي استوطن القيروان وحصلت له بها رئاسة العلم، أخذ عن كثير من علماء المشرق والمغرب، رحل إلى قرطبة والمشرق وحج ودخل العراق، أخذ عنه الكثير من أهل العلم. وتوفي عام ٤٣٠ هـ (المؤنس- حاشية ص ١٠٤).
- ٦ المؤنس ص ١٠٤-١٠٥.
- ٧ د. عبد العزيز سالم- المغرب الكبير ص ٦٩٣.

عبء تبليغ الدعوة الإسلامية، وتصحيح مفاهيم العقيدة. وسمّوا بالملثمين أو الملثمة لاتخاذهم لشاماً داكن اللون يغطي الجزء الأدنى من وجّههم ١ وكان على رأسهم المجاهد يحيى بن عمر بن إبراهيم اللمتوني الذي توفي سنة ٤٤٦ هـ أو ٤٤٧ هـ ٢، فخلفه أخوه: أبو بكر بن عمر اللمتوني، وكان كأخيه مثال الإخلاص والتضحية والقيادة الناجحة، فمد الإسلام في إفريقية وبلاد السودان، وأمضى حياته في الجهاد، وتنازل لابن عمه يوسف بن تاشفين الذي أثبت مقدرة ومهارة أكسبته مكانة عالية بجانب شهرته العسكرية ٣، واستمر أبو بكر في جهاده إلى أن استشهد في الصحراء عام ٤٨٠ هـ ٤.

اتخذت الدولة المرابطية أعماط عاصمة وهي على بعد ٣٥ كم جنوب شرقي مدينة مراكش، ثم اختط يوسف مدينة مراكش عام ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢ م أو بعدها بقليل، وأسس قصبة ومسجداً، وكان يشارك العمال بنفسه في بناء المسجد تواضعاً لله وتورعاً ٥.

تمكن المرابطون بقيادة يوسف من توحيد المغرب وإنقاذه من الفرقة وأزالوا المنكرات، ورفعوا المكوس الجائرة، وفرقوا الأحماس على المرابطين والفقهاء، وطبقوا أحكام الدين، وقضوا على الروافض، ورجع من بقي منهم إلى أهل السنة والجماعة، كما قضوا على مذهب صالح ابن طريف الإباضي، وكان يهودي الأصل نشر مذهبه بين قبيلة برغواطه ٦ وأصبحت دولتهم تستعد للامتداد إلى الأندلس، وهم يوسف بذلك وأخذ في إنشاء المراكب والسفن ليعبر فيها ٧

١ وقيل إن سبب اتخاذ لمتونة للثام: اتخاذهم في أعراسهم نوعاً خاصاً من الحجاب، أو لأنه حدث ذات مرة في بعض حروبهم إن نساءهم كن يقاتلن معهم محجبات حتى يحسبن بذلك في عداد الرجال (انظر السلاوي-الاستقصا ج ١ ص ٩٨-٩٩، عنان-دول الطوائف ص ٢٩٩).

٢ الاستقصا ج ٢ ص ١٣.

٣ انظر البيان المغرب ج ٤ ص ٢٤.

٤ المؤنس ص ١٠٧.

٥ البيان المغرب ج ٤ ص ١٢٣/ الاستقصا ج ٢ ص ٢٤.

٦ ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٣-٢٠٩/ انظر: عنان- دول الطوائف ص ٣٠٥-٣٠٦.

٧ نفع الطيب ج ٤ ص ٣٥٤.

ثانياً الأندلس بعد سقوط الدولة العامرية

نعمت الأندلس الإسلامية بالأمن والرفاهية في ظلّ الدولة الأموية وفي عهد الدولة العامرية، ومدّت نفوذها على جميع شبه الجزيرة الأندلسية والمغرب، وركدت حركات النصارى، وامتألت قلوبهم رعباً، فقلّ عبثهم، وخطب ملوكهم ودّ الدولة الإسلامية في أكثر عهودها. ولما انقطعت تلك الدولة قام الطوائف بعد الخلفاء، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات، واقتسموا خططها، وتغلب بعض على بعض ١، وكثرت الفتن وانبسط عدو الدين في الجزيرة وبلغ منهم كلّ مبلغ ما بين قتل وأسر، وهم (أي ملوك الطوائف) في تحاسد واختلاف الكلمة وانتحال الأوصاف، واقتسام ألقاب الخلافة، فتلقّبوا بالناصر، والمنصور، والمعتمد، والمظفر، والمتوكل، والقادر، والمؤمن، وغير ذلك، فمال شاعر الأندلس أبو بكر محمد بن عمار أو غيره ٢: مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتمد فيها ومعتمد ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالمهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد واستعان بعضهم على بعض بأعدائهم من نصارى الشمال، فوجد النصارى الفرصة للقضاء على المسلمين جميعاً في شبه الجزيرة، فأخذوا يضربونهم، بعضهم ببعض، ويدفعون كلا منهم للصراع، ويغرونهم بشتّى الإعنات، والخداع، والمكر، والكيد، حتى يتمكنوا من أخذ البلاد والاستيلاء على الطّارف والتّلالد ٣ كما نشروا الجواسيس لإيجاد الصدع في صفوف المسلمين ٤، وتنازع الإخوة من ملوك الطوائف على الملك ٥، واستعان كلّ منهم بالعدوّ الصليبي على أخيه، ولبّى النصارى الاستغاثات لأنهم وجدوها فرصة لتصفية الحساب مع المسلمين، فكانوا يقدمون الضمانات الزائفة، والوعود الكاذبة للجانب الذي ظهر رجحان كفته، حتى إذا أوشك على النصر قلبوا له ظهر المجنّ وعملوا على ترجيح كفة منافسه ٦ كما أخذت الكنيسة في روما تتحرّك بقوة بما لاحظته من ضعف المسلمين، فعملت على تكتّل نصارى أسبانيا، وعلى تكتّل النصارى في أوروبا لتوحيد العمل ضد الإسلام والمسلمين. والحقّ أن الأفرنج ما طمعت في الأندلس إلاّ عندما تفرقت

١ نفسه ج١ ص ١٣٤

٢ انظر سير أعلام النبلاء ج١٨ ص ٥٨٢-٥٨٣ / نفح الطيب ج١ ص ٢١٤، ج٤ ص ٢٥٥ / ابن

خلكان- وفيات الأعيان ج٤ ص ٤٢٨ / المؤنس ص ١٠١

٣ نفح الطيب ج٥ ص ٥٠٧ عن جنة الرضى لابن عاصم.

٤ وقصة المنصور مع الشيخ الهرم، واكتشاف جاسوسيته مثال على هؤلاء الجواسيس / نفح الطيب

ج١ ص ٣٧٨

٥ كما حصل في أمراء بنى هود بين الأخوين المقتدر بن هود والمظفر بن هود. وكما حصل لأبناء

المقتدر: المؤمن، والمنذر (الحجى- التاريخ الأندلسي ص ٣٥٦) .

٦ كما حدث مع أبي بكر بن عبد العزيز الذي ثار على القادر واحتمى بالفونسو السادس.

البلاد، وصار كلّ بلد بيد ملك، فحينئذ طمع الفرنج فيهم، وأخذوا كثيراً من ثغورهم ١، وأنهكوا قوى المسلمين واستنزفوها. فاتخذت الحرب في الأندلس وجهة الحرب الصليبية قبل أن تعلن بصفة رسمية في الشرق. إذ قرّر البابا الأسكندر الثاني عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٣ م منح مغفرة خاصة لكل من يشدّ الرّحال

لقتال المسلمين في أسبانيا، فهب عدد كبير من فرسان فرنسا وأوربا لمساعدة إخوانهم في ما وراء الجبال ٢ فقويت الممالك النصرانية في شمال الأندلس، وتوالت غاراتها على المسلمين، وطمع فردلند (فرناندو الأول) ملك قشتالة وليون فاستولى على بعض المناطق القاصية من الشمال الغربي سنة ٤٤٩ هـ/١٠٥٧م وحاصر مدينة باز وجنوب دويرة، واقتحمها بعد دفاع مجيد من المسلمين وعاث فيها قتلاً وأسراً، كما هاجم واحتل مناطق من مملكة بطليوس الخاضعة لبني الألفطس، وعاث عام ٤٥٤ هـ في الأنحاء الشمالية لمنطقة طليطلة وحكامها بنو ذي النون، وفي بعض مناطق اشبيلية حيث بنو عباد، وسقطت بيده مدينة قلمرية (قلنبيره) عام ٤٥٦/١٠٦٤م ٣. وهاجم النورمان مدينة بربشتر وتقع على بعد ٦٠ كم شمال شرق سرقسطة وإحدى القواعد الأندلسية المنيعه، وتغلبوا عليها بعد حصار أربعين يوماً سنة ٤٥٦ هـ وارتكب النصارى فيها جرائم مذهلة مثيرة بقيادة جيوم دي مونري من أكابر فرسان عصره. وكان في خدمة الجيوش الرومانية والبابوية ٤، فقد استباحوا المدينة بعد أن آمنوا سكانها بكل ما فيها ومن فيها، وقدر عدد القتلى والأسرى بين أربعين ألف ومائة ألف، ثم أعطى قائد الحملة الأمان لکنه- حين رأى كثرة أهل المدينة- أمر جنده أن تقلل أعدادهم حصداً بالسيف، فأطيح أرضاً بستة آلاف من الرؤوس، ثم انتهبوا المدينة، واحتلوا دورها لأنفسهم وارتكبوا أبشع الجرائم قتلاً وهتكاً للأعراض. وكان (الخطب أعظم من أن يوصف أو يُستقصى) كما يقول ابن حيان ٥ فأثر الخطب في المسلمين وتداعوا إلى الجهاد، فتمكنوا من استرجاعها عام ٤٥٧ هـ ومزق المعتدون بعد أن دام احتلالها تسعة شهور ٦.

وتوفي فردلند (فرناندو الأول) ملك قشتالة وليون عام ٤٥٨ هـ/١٠٦٥م بعد أن قسم دولته بين أولاده الثلاثة، حيث تحارب الأخوة حرباً لم يستغلها المسلمون لتفرقهم ولتمكن

١ الكامل في التاريخ ج ٨ ص ١٣٨

٢ اندري جوليان- تاريخ إفريقيا الشمالية- تعريب محمد مزالي، والبشير بن سلامة ج ٢ ص ١١١

٣ الحجى- التاريخ الأندلسى ص ٣٢٨

٤ عنان- دول الطوائف ص ٢٧٤

٥ الحجى- التاريخ الأندلسى ص ٣٦١

٦ الروض المعطار ص ٤١.

الروح الانهزامية في نفوسهم، وانتصر في هذه الحروب شانجه وهرب أخوه الفونسو (الاذفونش) ولجأ إلى طليطلة عند ملكها يحيى بن إسماعيل بن ذي النون الملقب بالمأمون، فقابلته بالترحاب وبالغ في إكرامه، وأنزله داراً مجاورة لقصره، وجعل له داراً أخرى خارت المدينة ذات حدائق تكون متنزهاً له ولمرافقيه، حيث قضى تسعة شهور درس فيها أحوال المدينة تمهيداً للاستيلاء عليها. وكان الأخ الثالث غرسيه قد لجأ إلى اشبيلية عند بني عباد. واغتيل شانجه عام ٤٦٥ هـ/١٠٧٢م فاستدعي الفونسو لتولي الحكم، بعد أن قطع الوعود للمأمون، وأصبح ملكاً لقشتالة وليون وجيليقية باسم الفونسو السادس (الاذفونش عند المسلمين) فتوحدت أسبانيا النصرانية حيث قضى غرسيه الأخ الثالث بقية عمره في السجن لمدة سبعة عشر عاماً ١

من هذا العرض لأوضاع المغرب والأندلس نرى أن المغرب الإسلامي كان يمر في حركة تغيير شاملة على أسس إسلامية، وعلى يد المرابطين، وتتبعث فيه حياة جديدة، وقوة وثابة، كالحركة التي شهدتها المشرق الإسلامي على يد السلاجقة. في حين كانت الأندلس الإسلامية تشهد حركة عكسية، حركة يتوالى فيها تمزق المسلمين، وتتوالى الانتكاسات، وتسربت إلى زعمانهم الروح الانهزامية أمام

القوى النصرانية الصاعدة الحاقدة على الإسلام وأهله، والتي تجنّدها البابوية من نصارى أسبانيا وأوربا. وأمام فقدان المسلمين في الأندلس قوتهم الذاتية تلمّسوا حولهم، فوجدوا القوى الإسلامية في العدو الأخرى، فاندفعوا للعمل للاتصال بالأخوة، وخاصة بعد قمة الفاجعة الأندلسية- سقوط طليطلة بيد النصارى.

١ الحجى- التاريخ الأندلسي ص ٣٣٠.

ثالثاً سقوط طليطلة زلزلة الأندلس الإسلامية

كانت طليطلة من أجلّ المدن الإسلامية وأعظمها خطراً ١، ومن- أكبر بلاد الأندلس وأحصنها ٢، حكمها من الطوائف بنو ذي النون الهواري، وأولهم الأمير إسماعيل عام ٤٢٠ هـ، ثم تملك المأمون بعد أبيه عام ٤٣٥ هـ ٣، فعكف على اللذات والخلاعة، وصادر

١ ياقوت- معجم البلدان ج٤ ص ٤٠.

٢ الكامل في التاريخ ج٨ ص ١٣٨.

٣ سير أعلام النبلاء ج١٨ ص ٢٢١ / الكامل في التاريخ ج٩ ص ٢٨٨.

الرعية، وهادن العدو، فطمعت فيه الفرنجة بل في الأندلس، وأخذت عدّة حصون، وكان قد استعان بهم على تملك مدائن الأندلس، وغدر به ملكهم، وأخذ رهينة حتى أعطاه ما طلب من الحصون، وقرّر عليه مالا كلّ سنة، وعاد ذليلاً مخذولاً وذلك بما قدّمت يداه، إلى أن توفي عام ٤٦٠ هـ ١ مقتولاً بيد القاضي ابن جحّاف، فخلفه القادر بن يحيى في الحكم ٢ الذي لجأ إلى بلاطه الفونسو السادس، وأقام فيه تسعة شهور، ولاقي الإكرام الزائد، والمجاملات الكثيرة إلى أن غادرها حاكماً للنصارى، بعد أن ارتبط ببني ذي النون بروابط الصداقة وأعطى العهود والمواثيق.

أصبح شغل الفونسو الشاغل الاستيلاء على هذا البلد الذي آواه وأكرمه، وكان قد درس وسائل احتلالها أثناء لجوئه، بل وتذكر بعض الروايات أنه استمع ذات يوم وهو متظاهر بالنوم إلى حديث المأمون مع وزرائه في كيفية الدفاع عن طليطلة إذا هاجمها النصارى، وقد أجاب بعضهم: أن النصارى لا يستطيعون الاستيلاء عليها وهي المدينة الحصينة إلا إذا أنفقوا سبعة أعوام على الأقل في تخريب أحوازها وإنتساف قوتها ٣، وتمكن الفونسو من الإطلاع على عوراتها ٤. فأخذ بالإغارة على أراضيها وعاث فيها سفكاً وتخريباً، وانتسف مزارعها، بالاتفاق (بالأسف) مع ابن عباد أمير اشبيلية، وأعظم ملوك الطوائف، الذي تحالف معه وتعهد بمعاونته بالجند والمرتزة ضد جميع المسلمين مقابل ألاّ يتعرض لمشروعه في مهاجمة طليطلة، فضحى المعتمد بمعقل الأندلس المسلمة مقابل وعود خداعة، ودفع للدفونش الجزية ٥

استمرّ الفونسو في غاراته على أراضي طليطلة دون أن يجد من يردعه، وبعد أن أنهكها تقدّم لحصارها، واستمرّ في حصارها سبع سنوات ٦ وارتكب بها وبأهلها الأفاعيل وأنزلت الآثام، وتمثّلت

النزعة الصليبية واضحة في هذا الحصار، فقد ضمت القوات النصرانية جنوداً من جميع أسبانيا النصرانية من قشتاله وليون واريغون، ومتطوعين نصارى من المغامرين من فرنسا وألمانيا وإنكلترا وغيرها من أوروبا النصرانية ٧، تباركهم الكنيسة. في

١ نفتح الطيب ج٤ ص ٣٥٢

٢ نفتح الطيب ج٤ ص ٣٥٢

٣ دول الطوائف ص ٣٩١، وهي قصة لا تخلو من الخيال، ولكنها ذات مغزى يرمي إلى تصوير مدى غفلة الأمير، وثقته بأعدائه، وركونه إليهم.

٤ ابن الخطيب- أعمال الأعلام ج٢ ص ٣٣٠

٥ الذهبي-العبر ج٢ ص ٣٣٨

٦ نفتح الطيب ج٤ ص ٣٥٣/ العبر ج٢ ص ٣٣٩/ الكامل في التاريخ ج٨ ص ١٣٨

٧ عنان- دول الطوائف ص ٣٩٦.

حين بقيت طليطلة المسلمة وحيدة تصارع هذه القوى، وأمراء الطوائف جامدون لا يتحركون، وكان الأمر لا يخصهم، بل ارتمى بعضهم كزعيمهم ابن عباد على اعتاب الفونسو، وتغافلوا عن الحقيقة: (إن النصارى لا يفرقون بين طليطلة وغيرها من القواعد الإسلامية) ولم يقد بواجب نجدتها إلا المتوكّل على الله عمر بن محمد بن الألفس أمير بطليوس الذي وقف مجاهداً عن الإسلام وأهله كوالده الذي كان قد دعا إلى وحدة الأندلس للوقوف في وجه النصارى، وأنحى باللائمة على ابن عباد الذي مالاً الأذفونش، وبين أن سبب تكالب الأفرنج على بلاد المسلمين يكمن في ذنوبهم وتفرقهم ١، واستمر في جهاده إلى وفاته سنة ٤٧٠ هـ. فكان ابنه المتوكّل هذا لا يقل عنه جهاداً، وقد ثار أهل طليطلة عام ٤٧٢ هـ ضد القادر وخلعوه لتعاونه مع الأذفونش وخياناته، واستدعوا المتوكّل ليتولى أمرها، فقبل مكرهاً، وأقام عندهم نحواً من عشرة أشهر ليعود إلى بطليوس حين علم باستعانة القادر بالأذفونش وتقدمهما نحو طليطلة ٢.

ينس أهل طليطلة من نجدات المسلمين، ففاوضوا الأذفونش من أجل التسليم، وكالعادة أعطى لأهلها الأمان لضمان حريّاتهم، واحترام شعائر دينهم، وحقوقهم، وحرمة مساجدهم، وكعادته أيضاً نقض هذه العهود بعد شهرين فقط، وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة، وحطم المحراب ليقام الهيكل مكانه ٣، وارتكب بأهلها الأفاعيل وأنزل بها الآثام ٤، تبارك الكنيسة في ذلك، واتخذها عاصمة لأسبانيا النصرانية. وكان سقوطها في منتصف المحرم سنة ٤٧٨ هـ. وأسفر سقوط طليطلة عن نتائج هامة:

فقد اشتد طمع النصارى في بلاد الأندلس الإسلامية، فشنّ الأذفونش الغارات على جميع الأندلس المسلمة، وفاز باستخلاص جميع أقطار ابن ذي النون واستئصالها، وذلك

١ انظر رسالته للأذفونش بهذه المعاني/ سير أعلام النبلاء، ج ١٨ ص ٥٩٥-٥٩٦ وفيها تظهر عزة المسلم حينما يلجأ إلى الله سبحانه ويستمد منه قوته.

٢ انظر: الحجى- التاريخ الأندلسي ص ٣٣٧

٣ نفتح الطيب ج٤ ص ٤٤٧/ عنان- دول الطوائف ص ١١٣

٤ نفتح الطيب ج٤ ص ٣٥٤

٥ نفتح الطيب ج٤ ص ٣٥٤/ العبر ج٢ ص ٣٣٨/ الكامل ج٨ ص ١٣٨.

ثمانون منبراً، سوى البُنَيَات والقريّ المعمورات، وحاز من وادي الحجارة إلى ظليّيرة، وفحص اللجّ، وأعمال شنزيرة كلّها، وتسمّى (بالإمبراطور) أو (الإمبراطور ذي الملتين الإسلامية والنصرانية) .
وظمع في ملوك الطوائف، وعاملهم معاملة الأتباع الأذلاء ١، وتصوّر أنهم غدوا كافة رهن إشارته، وطوع بنانه، وأنه سيقضى عليهم الواحد بعد الآخر، ورفض جزيتهم وردّها كما فعل مع ابن عباد، ووصفهم بالحمقى الذين تلقبوا بأسماء الخليفة وهم لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ٢
وتسلل اليأس إلى نفوس المسلمين من ملوك الطوائف، وغدت الأصوات اليائسة ترتفع، وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال أو غيره ٣:
يا أهل أندلس حثّوا مطيكم ... فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدوّ لا يفارقنا ... كيف الحياة مع الحيّات في سفظ
هذا وقد نُظمت قصائد كثيرة في سقوط طليطلة وغيرها من المدن والحصون يظهر فيها الأسى والحزن.
وأدرك ملوك الطوائف عزلتهم عن أمّتهم، وأنّ النصارى لا يفرّقون بينهم في المعاملة، وينظرون إليهم نظرتهم الحاقدة إلى المسلمين تحثّهم على ذلك الكنيسة بروحها الصليبية، فتنادوا للقاء، وتداعوا للوحدة استجابة أو مساييرة للرأي العام المسلم.

١ أنظر الحجّي- التاريخ الأندلسي ص ٣٣٤-٣١٥

٢ المؤنس ص ١٠١

٣ وتروى الأبيات بأشكال مختلفة بالمعنى نفسه. انظر: نفع الطيب ج٤ ص ٣٥٢.

رابعاً دور العلماء في الدعوة إلى الوحدة في الأندلس

للعلماء المسلمين دور كبير في جميع عهود التاريخ الإسلامي، في الدعوة إلى لَم الشمل والوحدة، وإلى الجهاد. فمنذ سقوط الدولة العامرية في الأندلس وتفرّقها إلى طوائف، ارتفعت أصوات العلماء بالدعوة إلى الوحدة، إدراكاً منهم للخطر الذي يتهدّد المسلمين من النصارى، ومن العلماء الذين قاموا بجهود في هذا المجال:

ابن عبد البر: (أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري) علامة الأندلس والمغرب الكبير (ت عام ٤٦٣ هـ) عن عمر ناهز الخامسة والتسعين، فقد جلا عن وطنه قرطبة وتجوّل في

أنحاء الأندلس فسكن دانية، وبلنسية، وشاطبة وبها توفي. وولي قضاء الأشبونة، وشنترين في مدة المظفر بن الأفضس، وكان خلال تنقله وتدريسه يدعو إلى نبذ التفرّق ولم الشمل ١. وابن حيان: (أبو مروان حيان بن خلف الأموي مولاهم) ٢، الذي علّق على أحداث الأندلس، وبشكل خاص نكبة بربشتر عام ٤٥٦ هـ، وعلّل أسبابها، وأنحى باللائمة على الناس والحكام بما ارتكبوا في جنب الله من ذنوب إهمالهم، بتقصيرهم في الأخذ بالشرعية، وتهاونهم في تنفيذ أوامرها، مما جرّهم إلى حالة الفرقة وأذهبت قوتهم فقد "أركستهم الذنوب، ووصمتهم العيوب، فليسوا في سبيل الرشد بأتقياء، ولا على معاني الغي بأقوياء، نشء من الناس هامل، يعلّون نفوسهم، من أول الدلائل على فرط جهلهم بشأنهم وإغزارهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعة خالقهم، ورفضهم وصية رسوله نبيهم عليه الصلاة والسلام، وهو وهم عن النظر في عاقبة أمرهم، وغفلتهم عن سدّ ثغرهم، حتى لظلّ عدوّهم الساعي لإطفاء نورهم، يتبجّع عراض ديارهم، ويستقري بسائط بقاعهم، يقطع كل يوم طرفاً منهم وسرامة، ومن لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكرهم، لهات عن لبهم، ما أن يسمع عندنا في مسجد من مساجدنا، ومحفل من محافلنا، مذكر بهم أو داع لهم، فضلاً عن نافر إليهم أو مواس لهم، حتى كأن ليسوا منا، وكأن فتقهم ليس بمفض إلينا، قد بخلنا عليهم بالدعاء بخلنا بالفناء، عجائب مغربة فاتت التقدير، وعرضت للتغيير، والله عاقبة الأمور واليه المصير". وقد أوقع ابن حيان نصيباً كبيراً لهذه الأحوال على أمراء السوء في دول الطوائف، الذين انحرفوا عن نهج الإسلام، ملوماً الناس لركونهم إلى أمثال هؤلاء الأمراء.

وأبو الوليد الباجي: (سليمان بن خلف التجيبي القرطبي) (٤٠٣-٤٧٤ هـ) الذي جاب أقطار المشرق الإسلامي، فجاور بمكة ثلاثة أعوام، ورحل إلى بغداد ودمشق والموصل، واستغرقت رحلته ثلاثة عشر عاماً، عاد بعدها إلى وطنه فولي المضاء لأماكن متعدّدة، وصنّف التصانيف الكثيرة ٣، ودعا إلى الوحدة من تلقاء نفسه أولاً، ثم نشط أكثر بعد حادثة بربشتر عام ٤٥٦ هـ تلك التي نبهت غيارى المسلمين إلى الخطر الكامن وراء هذه الأحداث المؤلمة، ثم عمه المتوكّل بن الأفضس، وشدّ من عضده، بل كلفه أو وجهه إلى الجهاد، فأخذت دعوته طريقها الرسمي بذلك.

١ انظر: وفيات الأعيان ج٧ ص ٦٧/ سير أعلام النبلاء ج١٨ ص ١٥٣-١٦٣.

٢ البيان المغرب ج٣ ص ٢٥٥ نوح الطيب ج٤ ص ٤٥٢-٤٥٣/ الحجى ص ٣٦٥.

٣ سير أعلام النبلاء ج١٨ ص ٥٣٥-٥٤٥/ العبرة ج٢ ص ٣٣٢/ البداية والنهاية ج١٢ ص ١٢٢.

وابن حزم: (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد) الوزير الظاهري ١، الذي تجول في الأندلس، داعياً إلى الوحدة، ووجه النقد اللاذع لملوك الطوائف وبين استهتارهم، وما أورثوا الأمة من الوهن والانحدار، ودعا إلى الجهاد، ومن جيد شعره في ذلك:

مناي من الدنيا علوم أبتها ... وأنشرها في كل بادٍ وحاضر
دعاء إلى القرآن والستن التي ... تناسي رجال ذكرها في المحاضر
والزم أطراف الثغور مجاهداً ... إذا هَيْعَة ثارت فأول نافر
لألقى حمامي مقبلاً غير مدير ... بسمر العوالي والرقاق البواتر
كفاحاً مع الكفار في حومة الوغى ... وأكرم موت للفتى قتل كافر
فيا رب لا تجعل حمامي بغيرها ... ولا تجعلني من قطين المقابر

وهناك كثير من العلماء قاموا بدورهم في هذا المجال مثل: حاتم بن محمد الطرابلسي القرطبي المحدث (ت عام ٤٦٩ هـ) ٢. وأبو العباس المعزري أحمد بن عمر بن أنس بن دلهاة الأندلسي المدلائي ٣. وأبو عبد الله الحميدي محمد بن أبي نصر الميورقي ٤. وأبو المعالي إدريس بن يحيى الأشبيلي ٥. والفقهاء أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد قاضي الجماعة بقرطبة ٦، وعبد الله بن غالب المالكي مفتي أهل سبتة ٧. وأبو القاسم المهلب بن أحمد الأسدي الأندلسي قاضي المرية ٨. ومكي بن أبي طالب القيسي ٩. ومحمد بن عبد الله المعافري محدث قرطبة ١٠. وعثمان بن سعيد القرطبي الصيرفي ١١. وعبد الله بن الوليد الأنصاري الأندلسي ١٢. وابن العربي أبو محمد عبد الله الأشبيلي والد القاضي أبي بكر ١٣.

-
- ١ سير أعلام النبلاء ج ١٨ ص ١٨٤ - ٢١٢ / العبر ج ٢ ص ٣٠٦ / دول الطوائف ص ٤٢٠ - ٤٢٣
 - ٢ سير ج ١٨ ص ٣٣٦ / العبر ج ٢ ص ٣٢٦ / شذرات الذهب ج ٣ ص ٣٣٣
 - ٣ العبر ج ٢ ص ٣٣٨ / سير ١٨ ص ٧ - ٨
 - ٤ العبر ٢ ص ٣٥٩ / شذرات ج ٣ ص ٣٩٢ / سير ج ١٩ ص ١٢ - ١٢٧ / الكامل في التاريخ ج ٨ ص ١٧٨ / البداية ج ١٢ ص ١٥٢
 - ٥ الحجى ص ٣٤٨
 - ٦ الحجى ص ٣٥٠
 - ٧ العبر ج ٢ ص ٢٦٩ / شذرات ج ٣ ص ٢٥٤
 - ٨ العبر ج ٢ ص ٢٧٢ / شذرات ج ٣ ص ٢٥٥
 - ٩ العبر ج ٢ ص ٢٧٣ / النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٤١
 - ١٠ العبر ج ٢ ص ٢٧٥ / شذرات ج ٣ ص ٢٦٣
 - ١١ العبر ج ٢ ص ٢٨٦ / شذرات ج ٢ ص ٢٧٢ / النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥٤
 - ١٢ العبر ج ٢ ص ٢٩٢
 - ١٣ سير أعلام النبلاء ج ١٩ ص ١٣٠ - ١٣١

والطلاعي أبو عبد الأحد بن الفرغ القرطبي المالكي مفتي الأندلسي ومحدثها ١. وحكم بن محمد أبو العاص الجذامي القرطبي مسند الأندلس ٢. والقاسم بن محمد بن هشام الرعيني السبتي المالكي ٣. وأحمد بن سليمان الباجي ٤. وأبو بكر محمد بن أحمد من أهل قرطبة الذي تطوع محاولاً إزالة الخلافات بين ملوك الطوائف، وسعى بجمع كلمتهم، وكان من بيت وزارة وجمالة ٥. كما اشترك في ذلك أبو الفتح نصر بن الحسن الترنبي الشاشي التنكتي من علماء المشرق (وتنكت من أعمال الشاش)

وقد جاب البلاد محدثاً وتاجراً، وسمع في مصر والشام والأندلس وتوفي سنة ٤٨٦ هـ ٦. وقد أسفرت جهود العلماء عن تكوين رأي عام لدى المسلمين في الأندلس، يطلب الوحدة، ويلحّ عليها، فاستجاب ملوك وأمراء الطوائف لهذا الإلحاح وعلى رأسهم المعتمد ابن عباد الذي كان يملك أكثر البلاد الإسلامية الأندلسية، والذي كان يؤدي الضريبة لألفونسو السادس، وكان قد أرسلها كعادته، فردّها عليه الفونسو وأرسل إليه يتهدده ويتوعّده السير إلى مدينة قرطبة وامتلاكها إلا أن يسلم إليه جميع الحصون التي في الجبل ويبقى السهل للمسلمين ٧. فأسقط في يد المعتمد كما أسقط بيد أمراء الطوائف، فاجتمعوا وتشاوروا، ولكنهم أدركوا أن الأندلس الإسلامية بأوضاعها المنحلة، وإغراق أهلها في النعيم، ليست لديها القدرة على التصدي للهجمة الصليبية القويّة، فبرزت فكرة الاستغاثة بالمرابطين لدى المعتمد الذي قال لابنه: "إن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس، ليس فيهم نفع، ولا يرجى منهم نصرّة، ولا حيلة، إن نزل بنا مصاب أو نالنا عدوّ ثقيل، وهو اللعين الأذفونش، وها هو قد رفع رأسه إلينا، وإن نزل علينا بطليطلة ما يرفع عنّا حتى يأخذ اشبيلية" ٨.

١ سير أعلام النبلاء ج١٩ ص ١٩٩- ٢٠١

٢ نفسه ج ١٧ ص ٦٥٩.

٣ نفسه ج ١٨ ص ٦-٧.

٤ نفسه ج ١٨ ص ٥٤٥-٥٤٦.

٥ الحجى- تاريخ الأندلس ص ٣٤٩.

٦ سير أعلام النبلاء ج١٩ ص ٩٠-٩١.

٧ الكامل في التاريخ ج ٨ ص ١٣٨ / سير الأعلام ج١٩ ص ٥٨.

٨ الحلل الموشية ص- ٥٢ / تاريخ المغرب الكبير ص ٧٢٠.

استتجاد الأندلس الإسلامية بالمرابطين

كانت الظروف الأندلسية التي بيّناها الحافز لطلب النجدة من مسلمي المغرب. فالفكرة كانت عامة على النطاق الشعبي، قبل أن يتبنّاها أمراء الطوائف رسمياً، فقد كان يوسف ابن تاشفين قد أتمّ وحدة المغرب عام ٤٧٤ هـ تقريباً، ووفد صريخ أهل الأندلس على بلاط مراكش في العام نفسه، ووفد إليه جماعة، وشكوا إليه ما حلّ بهم من عدوان النصارى، وطلبوا إليه النجدة، والعون، فوعدهم بتحقيق أمنيّتهم ١، كما كانت سفارة أبي الوليد الباجي إليه قبل هذا التاريخ لأن الباجي توفي عام ٤٧٤ هـ كما ذكرنا. وكتابه المتوكل على الله بن الأفضس حاكم بطليوس ٢ وأمام استمرار الصريح استعدّ بقواته ليجوز الأندلس، فافتتح سبّته عام ٤٧٧ هـ، وأخذ يعدّ العدة وينشيء المراكب والسفن ليعبر فيها ٣. وينتظر الفرصة السانحة.

وفي سبّته توالى الرسل إليه أكثر من ذي قبل، وازدادت أكثر بعد سقوط طليطلة، فكثرت رسل الأندلس، مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته، للحثّ على إنقاذهم مما هم فيه، وما يقتضيه واجبه الإسلامي نحو إخوانه. فكان يصغي لقولهم ويستمع إليهم، وترقّ نفسه لهم ٤.

ثم تحوّل الأمر بعد استئساد النصارى على المسلمين وزلزلة طليطلة، فأصبحت الدعوة للعبور رسميّة، فاتفقت الأندلس كلّها على ذلك أمراؤها وفقهاؤها وعامتها ٥. وكان ملوك الطوائف يكرهون إمام يوسف بجزيرتهم ٦ ولكنهم أمام ضغط النصارى وتنكر الفونسو لهم، وخضوعاً للرأي العام الإسلامي، استغاثوا بأمر المسلمين، فعقد اجتماع في قرطبة حضره الزعماء والفقهاء وكثير من الناس، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد، اتخذ فيه قرار الموافقة على استدعاء المرابطين للنصرة، ثم دعا المعتمد غيره من ملوك الطوائف إلى هذا الأمر، واجتمعوا بالفعل لاتخاذ ترتيبات عبور وفد إلى العدو ودعوة الأمير يوسف، وكتبت رسالة بهذا الشأن وقّعها أمراء الأندلس، وأرسلت من الأندلس مع سفارة خاصّة وتحت إشراف ابن عباد، وحملت السفارة التحف الثمينة والوعود المغرية للاستغاثة ٧ مع الرسالة. وقد ضمّ الوفد: عبيد الله بن أدهم قاضي قرطبة، وكان أعقل أهل زمانه، ووزير المعتمد أبا بكر بن زيدون، وقاضي المتوكل على الله عمر بن الأفضس أمير بطليوس، وقاضي عبد الله

١ انظر: عنان- دول الطوائف ص ٣١٢-٣١٥.

٢ الحجي ص ٣٩٧/ عنان ص ٩٢.

٣ نفح الطيب ج٤ ص ٣٥٤ عن الروض المعطار.

٤ نفسه ج٤ ص ٣٥٩-٣٦٠.

٥ دول الطوائف ص ٣١٧.

٦ نفح الطيب ج٤ ص ٣٥٤.

٧ التواتي- مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس ص ٢٨٧.

ابن حبوس بن ماكسن الصنهاجي صاحب غرناطة ١. والتقى الوفد بأمر المسلمين في سبّته، فلبى النداء وقال: "أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا بنفسه" ٢.

وكانت هناك دعوة للاستنجاد بعرب إفريقيا (بني هلال) ٣، واستبُعد هذا الرأي، كما ارتفعت بعض الأصوات تعارض الرأي العام في الاستنجاد بالمرابطين تزعمها عبد الله ابن سكوت والي مالقة، الذي حذر أمراء الأندلس من المغاربة خوفاً من استنثارهم بالأندلس أرض الخيرات، وقد اشتهر ابن سكوت بمواقفه المشبوهة، ولعله هو المدبر للحركة المضادة لدخول المرابطين، التي اتخذت اتجاهًا خطيراً فيما بعد، وجعلت أمير المسلمين يتشكك في نوايا أمراء الأندلس ٤. وحذر أبو الحسن عبيد الله (ولي عهد المعتمد) والده مغبة الاستنجاد بالمرابطين، وقال له: "يا أبت تدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا، ويبدد شملنا" ٥. ولكن المعتمد المدرك أبعاد القضية أجابه: "أي بني والله لا يسمع عني أبداً أني أعدت الأندلس دار كفر، ولا تركتها للنصارى، فتقوم عليّ اللعنة في منابر الإسلام مثل ما قامت عليّ غيري". وقال قولته التي سارت مثلاً: "رعي الجمال خير من رعي الخنازير" أي أن كونه مأكولاً لابن تاشفين أسيراً يرعى جماله في الصحراء، خير من كونه ممزقاً لابن فردند أسيراً يرعى خنازيره في قشتاله ٦.

ولما فشا في الأندلس عزيمة الاستنجاد بيوسف والاستظهار به، استبشر الناس وفرحوا بذلك وفتحت لهم أبواب الأمل ٧، وعم المسلمون الفرح.

-
- ١ الروض المعطار ص ٨٦ / انظر: الحجي- تاريخ الأندلس ص ٣٢١.
 - ٢ المعجب للمراكشي ص ١٣٠-١٣٢.
 - ٣ الكامل في التاريخ ج ٨ ص ١٤١-١٤٢.
 - ٤ نفح الطيب ج ٤ ص ٣٥٥.
 - ٥ ابن الخطيب- أعمال الأعلام ص ٢٤٥.
 - ٦ نفح الطيب ج ٤ ص ٣٥٩ / البيان المغرب ج ٤ ص ١١ / وفيات الأعيان ج ٧ ص ١١٥.
 - ٧ نفح الطيب ج ٤ ص ٣٥٩.

الشورى

جمع يوسف بن تاشفن مجلس شورا من الفقهاء والأعيان والقادة، واستشارهم في نجدة الأندلس، فأشار عليه كاتبه عبد الرحمن بن أسبط من أهل المريّة، وأوضح له أن معظم أراضي الجزيرة في يد النصارى، والجزيرة ذاتها وعرة البسائط، تعترضها جبال صعبة

المسالك، وهي شبيهة بسجن، يندر على الداخلين إليه الخروج منه.. وقال: "فإذا انتصر عليك الأعداء، فقد يقطع عليك طريق العودة بأيسر أمر". وأضاف: "فنصيحتي أن تُخَطِرَ أمير اشبيلية بأنك لا تستطيع العبور قبل إخلاء حصن الجزيرة، وبذلك تملك موقعاً أميناً، تشغله حامية مخصصة، وتبقى في كلّ وقت على اتّصال دائم بإفريقية" ١. وهذا دليل على الشكّ في نيّة أمراء الطوائف، فقد عرف عنهم الغدر وعدم التقيد بالعهود، فاشتراط الأمير يوسف تسليم ثغر الجزيرة لضمان سلامة طريقه في الذهاب وحماية ظهره في الإياب، فوافق المعتمد على ذلك.

١ الحلال الموشية ص ٥٠ / التواتي ص ٢٨٩.

الإعداد للجهاد

كان ابن تاشفين على استعداد للعبور إلى الأندلس قبل استنجد ملوك الطوائف، فجاء الفرصة السانحة، فاستنفر قواته للجهاد، فاجتمع له نحو من سبعة آلاف فارس، في عدد كثير من الرجال ١، وأقبل من بقي من جنده في مدينة مراکش حتى تكامل العدد، وكان قد أعد أسطولاً يتألف من مائة سفينة وعدداً من المراكب ليعبر فيها ٢.

وبلغ الأذفونش (الفونسو السادس) استعدادات ابن تاشفين واعتزاه المجاز للأندلس، فأراد أن يجسّ النبض، فكتب إليه يستحثه على سرعة القدوم، وأغار على البلاد في تظاهرة عسكرية جرّارة حتى وصل ساحل البحر عند الجزيرة، وكتب من هناك كتاباً، كتبه له بعض غواة أدياء المسلمين يغلظ له في القول، ويصف ما معه من القوة والعدّد والعدّد وبالغ في ذلك. فلما وصل الكتاب وقراه يوسف أمر كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجيبه، وكان كاتباً مفلقاً، فكتب وأجاد، فلما قرأه على أمير المسلمين. قال: "هذا كتاب طويل، احضر كتاب الأذفونش واكتب في ظهره: "الذي سيكون ستراه" ٣، والسلام على من اتبع هدى، وأردف الكاتب بيت أبي الطيب (المتنبي):
ولا كتب إلا المشرفية والقنا ... ولا رسل إلا الخميس العرمرم
فلما وقف الأذفونش على الكتاب، ارتاع له وأنه بلي برجل لا طاقة له به ٤.

١ الحجى ص ٤٠٣ / المعجب ص ١٩١

٢ نفح الطيب ٤ ص ٣٥٤

٣ نفسه ج ص ٣٦١

٤ نفح الطيب ج ٤ ص ٣٦١ / أعمال الأعلام ق ٣ ص ٢٤٠.

عبور المجاهدين

عبرت الجيوش الإسلامية المجاز (مضيق جبل طارق) بقصد الجهاد سنة ٤٧٩ هـ، من سبتة إلى الجزيرة الخضراء تبعاً: فكان أولها قوة من الفرسان بقيادة داود بن عائشة، وآخرها موكب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، يوم الخميس منتصف ربيع الأول عام ٤٧٩ هـ / ٣٠ / حزيران ١٠٨٦ م^٢.

ويذكر أنه خلال العبور هبّت ريح عاصف أثارت أمواجاً عالية، فرفع الأمير يوسف يديه إلى السماء يدعو الله عزّ وجلّ:

"اللهم إن كنت تعلم أنّ في جوازنا هذا خيراً وصلاحاً للمسلمين فسهّل علينا جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه". واستجاب الله دعاءه، "فسهّل له المركب، وقرب المطلب" ^٣. وما كاد يطأ بقدميه أرض الأندلس حتى سجد لله شكراً. وتلقاه المعتمد بن عباد في وجوه من دولته، وقدم إليه الهدايا والتحف، وتسلم الأمير قلعة الجزيرة الخضراء باحتفال حضره القضاة والفرسان والمعتمد، كما تسلم عدة قلاع وحصون أخرى، قام بإصلاحها، وأعاد تحصينها، أتمّ تحصين، ونظمها حسب رأيه وإستراتيجيته الخاصة، ورتب لها حامية مختارة من جنده لتسهر عليها، وشحنها بمقادير عظيمة من الأقوات، والذخائر، والمؤن، لكي تغدو ملاذاً أميناً، يلتجئ إليه، إذا منيت الحملة بالفشل^٤.

وفشا خبر عبور الأندلس فقوبل بالترحيب وانتعاش الآمال من قبل جميع المسلمين في الأندلس، وتحركت في نفوسهم روح الجهاد فتوافد إليه المتطوعة من كل مكان، كما جاءت الوفود مرحبة.

١ المؤنس ص ١٠٨.

٢ عنان- دول الطوائف ص ٢١٩.

٣ دول الطوائف ص ٣١٩، ٤٤٧ / الحجي ص ٤٠٣ / التواتي ص ٢٩١.

٤ دول الطوائف ص ٣٢٠ / التواتي ص ٢٩١.

خط سير القوات الإسلامية إلى الزلاقة

تحرك يوسف بالجيش الإسلامي من الجزيرة الخضراء باتجاه الشمال الشرقي إلى أشبيلية، ولما وصلها نزل بظاهرها، وطلب إليه المعتمد أن يدخل حاضرة ملكه ليستريح فيها أياماً من وعناء السفر، ومشقة الطريق، قبل أن يلتقي بعوده. فأبى يوسف الدخول وقال:

"إنما جئت ناوياً جهاد العدو، فحيثما كان العدو توجهت، هلم (إلى ما جننا له من الجهاد) " ١ .
وأقام بظاهر أشبيلية ثمانية أيام، نظم فيها أموره، وتمّ التخلّص من كلّ ما لا حاجة إليه في ساحة المعركة، وتمّت دراسة الجوّ، والأوضاع والنفوس، وتمّ التناغم جيوش المسلمين وأمراء الأندلس التي تقرّر أن تشارك في المعركة المنتظرة، وكانت قد سرّت في مسلمي الأندلس قبل ذلك وخلال روح جديدة، ذكرتهم بأيام النصر التي سمعوا عنها الكثير، فشارك أمراء الطوائف بقواتهم، وأعدوا ما يمكن للمشاركة في البذل والتضحية. (ولم يبقَ من ملوك الطوائف إلا من بادر أو أعان أو خرج، أو أخرج) ٢ . فانضمّ المعتمد بقواته، وبعض قوات بعثها ابن صمادح صاحب المريّة الذي اعتذر عن عدم استطاعته الشّخوص بنفسه بسبب العدو الملاصق له بحصن لبيط، من عمل لورقه، واعتذر بكبر السن مع الضعف. وساهم عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة وأخوه تميم صاحب مالقة، وابن ذي النون، وانضمّ المتوكل بن الأفيطس وكان أشدهم حماساً، وقصدته المتطوعة من سائر بلاد الأندلس ٣ . وكان يوسف خلال هذه الأيام صائم النهار، وقائم الليل، في تهجد، وتلاوة آيات كتاب الله الكريم، وقد أكثر من الصدقات، وأعمال البر، فتمكّن نفوس أهل الأندلس، وكسب قلوب جنده بالنصفة، وإيثار الحق، وإنشاء العدل. ووصله أثناء ذلك خبر موت ابنه أبي بكر، (فحيره حتى لهمّ بالانصراف عن وجهه. ثم أثر الجهاد، وانفذ مزدلي (أحد قادته المشاهير) إلى مراكش) ٤ للقيام بتنظيم الأمور هناك. وقام يوسف بتنظيم الجيش للتحرك من ظاهر أشبيلية، فجعل القوات الأندلسية لوحدها في المقدمة بقيادة المعتمد بن عباد، لمعرفة التامة بأرض الأندلس، في حين جعل الجيوش المرابطية في المؤخرة، ثم أمر بالتحرك إلى بطليوس، فتلقاهم المتوكلّ عمر بن محمد الأفيطس بما يجب من الضيافات والأقوات وبذل المجهود ٥ . فأقام الجيش هناك ثلاثة أيام للراحة في طرطوشة بالقرب من بطليوس ٦ .

١ حسن إبراهيم- تاريخ الإسلام ج٤ ص ١٢١ / المعجب للمراكشي ص ١٣٢

٢ نفح الطيب ج٤ ص ٣٦٢

٣ الكامل في التاريخ ج٨ ص ١٤٢ / أشباخ- تاريخ الأندلس ص ٨٠ / وانظر ما كتبه عبد الله بن

بلقين في كتابه التبيان- الحجى ص ٤٠٤

٤ انظر: الحجى ص ٤٠٤، عن الحلة السيرة ج٢ ص ١٠٠ / راجع دول الطوائف ص ٣١٩

و. ٤٤٧

٥ نفح الطيب ج٤ ص ٣٦٤

٦ انظر عن طرطوشة ياقوت ج٤ ص ٣٠ وعن بطليوس: ياقوت ج٤ ص ٤٤٧ / التواتي ص ٢٩٤ .

علم أمير المسلمين بتقدّم الجيوش الصليبية، فأمر الجيش الإسلامي بالتحرك، إلى مكان مناسب، اختاره مع القادة ليكون موقع المعركة الفاصلة، وهذا المكان موضع سهليّ من عمل بطليوس وأحوازها على مسافة ١٢ كم شمالها الشرقي، في العدوّة الشماليّة للوادي اليناع، وبينه وبين نهر تاجه، تتخلله الأحراش، ويقع على حدود البرتغال الحاليّة ١، ويسميه المسلمون (الزلاقة) ٢، ويسميه الأوروبيون (ساكر الياس) ٣.

وفي هذا المكان وضع أمير المسلمين ترتيباً جديداً للجيش الإسلامي استعداداً للمعركة الفاصلة، فجعل الفرسان المرابطين وعددهم عشرة آلاف في طليعة الجيش، بقيادة أبي سليمان داود بن عائشة أشهر قادته الكبار، وذلك ليتلقوا الصدمة الصليبية الأولى.

وجعل قوات الأندلس تليهم، وكانت تؤلف وحدها جيشاً خاصاً، منفصلاً عن جيوش المرابطين، يقودها المعتمد بن عباد أمير أشبيلية أشهر ملوك الطوائف.

كما جعل جيشه في المؤخرة، وعلى مسافة كبيرة من جيش الأندلس، وراء أكمة ليوهم العدو أنّ الجيش الذي يواجهه هو الأوّل والثاني فقط.

وهكذا تحكّم المسلمون في اختيار موقع المعركة، ووضعوا خططهم على أساس ذلك، ونظّم يوسف الاتصالات السريعة بينه كقائد أعلى للجيش وقواد الجيشين بحيث تأتي الأخبار سريعة. وجعل ابن تاشفين المعتمد بن عباد في قلب مقدّمة جيش الأندلس، والمتوكل بن الأفضس في الميمنة، وأهل مشرق الأندلس في الميسرة، وباقي الأندلسيين في السّاقة.

وجعل من جيشه المرابطي كمانن لتفاجيء العدو بعد اصطدامه بفرسان المرابطين وبجيش الأندلس، ولمنع الأندلسيين من التراجع أو الفرار، وضرب معسكره وراء ربوته العالية منفصلاً عن مكان القوات الأندلسيّة.

١ عنان- دول الطوائف ص ٣٢١

٢ وفيات الأعيان ج٧ ص ١١٦ / المونس ص ١٠٨ / أعمال الأعلام ج٢ ص ٢٤٦ / ياقوت ج٣ ص

١٤٦. والزلاقة الموضع الذي لا يمكن الثبوت عليه من شدة زلّقه- لسان العرب ج١٠ ص ١٤٤.

٣ التواتي ص ٢٩٥ وانظر الحجّي- التاريخ الأندلسي ص ٤٠٥.

استعداد النصارى وتحركهم باتجاه المسلمين

كان الفونسو السادس قد طمع في الأندلس الإسلامية، وعتا وتجبر، وقطع عهوده مع أمرائها وملوكها، وجاءته بركات البابا، وتدفقت عليه جموع النصارى الفرسان من مختلف أجزاء أوروبا، فعاث في الأندلس الإسلامية فساداً حتى وصل الجزيرة كما ذكرنا، وأعلن تحديه لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، ثم توجه بقواته لمحاربة أمير سرقسطة ابن هود، وحاصرها، وألح عليها، وقاومت ببسالة. وعندما تأكدت لديه أنباء عبور المجاهدين، رفع الحصار تاركاً أمر تصفية حساباته مع سرقسطة إلى ما بعد إيقاف هذا الزحف، وحشد القوات النصرانية من جيليقية، وليون، وبسكونية، واشتوريش، وقشتالة ١، وكاتب ملك اراغون شانجه بن ردمير صاحب بنبلونة وكان مشغولاً بمحاصرة طرطوشة، فانضم إليه بقواته، وكاتب الكونت برنجار ريموند الذي كان يتأهب لغزو بلنسية فانضم إليه بقواته. وطلب النجدات من أمراء ما وراء البرت فلقح به سيل من الفرسان والمتطوعين الفرنجة والألمان والإنكليز والإيطاليين، فأصبح جيشه كبيراً متفوقاً في العدة والعدد والإمكانات، واتخذت المعركة شكل الحروب الصليبية، فقد رفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم، ونشروا أناجيلهم ٢ أمام القوات النصرانية، وباركها البابوات وحنّوا عليها، ووجهوها، بل تباع رهبانهم على الموت.

وسار الفونسو بجيشه اللّجب مزهواً بنفوقه في العدة والعدة، وبلغ به الزهو وبجيشه أن قال: "بهؤلاء أقاتل الجنّ والإنس، وملانكة السماء" ٣. وبلغ به الأمر أن قال: "بهذا الجيش ألقى إله محمد" ٤ (ﷺ).

تحرك الفونسو باتجاه المسلمين ليفرض المعركة عليهم في أرضهم بدلا من انتظارهم، وكان الجيش الإسلامي قد اختار مكان اللقاء، ولما أصبح على مسافة ١٨ ميلا من القوات الإسلامية نزل هناك. عندئذ أمر أمير المسلمين المعتمد بن عباد التّقدّم إلى سفح جبل أمام الأذفونش بحيث يتراوون، فظن الأذفونش أنّ عساكر المسلمين ليس إلا الذي يراه ٥، فنجحت خطة أمير المسلمين الأوليّة. وقام الفونسو بترتيب جيشه، فقسّمه إلى قسمين: الأوّل بقيادة الكونت جارسيان والكونت رودريك، وخصّص لمهاجمة المعتمد بن عباد. والثاني: جناح الفونسو بقيادة

١ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ٨٠ / انظر الحجي ص ٤٠٥.

٢ نفع الطيب ج٤ ص ٣٦٣ / الروض المعطار ص ٨٧.

٣ نفسه.

٤ الكامل في التاريخ ج٨ ص ١٤٢.

٥ نفسه.

سانشو (شانجة) رامير يز ملك اراغون والكونت ريموند، وقاد الفونسو القلب. وهكذا كانت احتياطات وخطط الفونسو لا تقلّ في أهميتها عن خطط أمير المسلمين، وانتظم الجيشان وتصافا لا يفصل أحدهما عن الآخر إلا فرع صغير من الوادي اليناع هو وادي يبرا (إبرة) ١.

القوى الإسلامية والنصرانية المتواجدة

بلغ عدد الجيش الإسلامي أكثر من عشرين ألفاً، عدا المتطوعة الذين جاءوا من سائر بلاد الأندلس
١. وعدادهم كبير.
وأما الجيش النصراني فالمقتل يقول: "المختارون أربعون ألف دارع، ولكل واحد أتباع، والنصارى
يعجبون ممن يزعم ذلك ويرون أنهم أكثر من ذلك كله" ٢. والمكثّر يقول: "إنه كان في ثمانين ألف
فارس ومائتي ألف راجل" ٣.
والواقع أن عدد الجيشين الإسلامي والنصراني كبير. وتتفق جميع المصادر أن عدد جيش المسلمين
كان أقل من جيش النصارى بكثير، وقد يصل إلى النصف ٤.

١ حسن إبراهيم- تاريخ الإسلام ج٤ ص ١٢١

٢ نفح الطيب ج٤ ص ٣٦٣

٣ المؤنس ص ١٠٨

٤ الحجى ص ٤٠٥

المراسلات

كانت **المراسلات** وتبادل الكتب بين أمير المسلمين وملك النصارى قد بدأت قبل دخوله الأندلس، وجميع المراسلات تحمل صيغة التّحدّي، وقبل بدء المعركة أرسل أمير المسلمين كتاباً لألفونسو امثالاً لأحكام السنة المطهرة، يعرض عليه فيه الدّخول في الإسلام أو الجزية، أو المناجزة، ومما جاء فيه ١: "بلغنا يا اذفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا، فقد عبرنا إليك، وقد جمع الله تعالى في هذه السّاحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك": {وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} سورة غافر الآية ٥٠. واختلفت الرّسل بين الفريقين في تحديد يوم القتال، ووعظ الأمير يوسف وابن عبّاد أصحابهما، وقام الفقهاء والعبّاد يعظون الناس، ويحضّونهم على الصّبر، ويحذّرونهم الفرار.

انفح الطيب جء ص ٣٦٢ / ابن خلدون ج٦ ص ١١٥ / وانظر الحجي ص ٤٠٦.

وجاءهم الطلائع بخبر أن العدوّ مشرف عليهم صبيحة يومهم (الأربعاء ١٠ رجب عام ٤٧٩ هـ) ولكن عاد الفونسو إلى أعمال الخديعة، وعاد النّاس إلى محلاتهم وياتوا ليلتهم ١. وهذه مناورة من الفونسو لمعرفة الجيش الإسلامي.

١ انظر: نفح الطيب جء ص ٣٦٤ - ٣٦٥ / الروض المعطار ص ٩٠ / الحجي ص ٤٠٦.

يقظة قادة الجيش الإسلامي

أدكى المعتمد بن عباد عيونه في محلات المرابطين خوفاً عليهم من مكائد الفونسو وكان قد خبره، وهم غرباء لا علم لهم بالبلاد، وجعل المعتمد يتولى ذلك بنفسه حتى قيل: "أن الرجل من الصّحراويين لا يخرج على طرف المحلّة لقضاء أمر أو حاجة، إلا ويجد ابن عباد بنفسه مطيفاً بالمحلّة" ١. واندست عيون المسلمين بين جيوش الفونسو، تتعرّف على مخططات النّصارى، فتعرّفوا على مخططات الفونسو في نيّة الغدر بالمسلمين ومباغتتهم، فقد كتب للمسلمين (يوم الخميس ١١ رجب) يقول: "الجمعة لكم، والسبت لليهود، وهم وزراؤنا، وكتابتنا، وأكثر خدم العسكر منهم، فلا غنى بنا عنهم، والأحد لنا، فإذا كان ما نريده من الزحف" ٢، أي حدّد أن تكون المعركة يوم الاثنين ينوي بذلك الغدر ٣، فجاءت العيون إلى يوسف وابن عباد وأكّدوا استعداد معسكر النّصارى. وقالوا: "استرقنا السمع فسمعنا الأذفونش يقول لأصحابه: ابن عباد مسعر هذه الحروب، وهؤلاء الصّحراويون وإن كانوا أهل حفاظ، وذوي بصائر في الحروب، فهم غير عارفين بهذه البلاد، وإنّما قادهم ابن عباد، فاقصدوه، واهجموا عليه، واصبروا، فإن انكشف لكم هان عليكم غيره"، فاستحثّ ابن عباد يوسف لنصرته، وبات المسلمون ليلتهم على أهبة احتراس وبقوا شاكي السلاح بجميع محلاتهم، خائفين من كيد العدو ٤.

١ بسام العسلي- الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية ص ٥٤

٢ حسن إبراهيم جده ص ١٢١ عن المعجب ص ١٣٥ / نفح الطيب جده ص ٣٦٥ / الروض ص ٩٥

٣ الكامل في التاريخ جده ص ١٤٢

٤ نفح الطيب جده ص ٣٦٥ / الروض ص ٩٢.

البشرى

وبعد مضيّ جزء من اللّيل انتبه الفقيه أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي (وكان في محلّة ابن عباد) فرحاً مسروراً يقول: "أنّه رأى النبي ﷺ يبشّره بالفتح والشّهادة له في صبيحة غد، وتأهبّ ودعا، ودهن رأسه، وتطيّب، وانتهى ذلك إلى ابن

عباد، فبعث إلى يوسف فخبّره تحقيقاً لما توقّعا من غدر ابن فرداند ١. وشاع ذلك في عسكر المسلمين كلّه، فشعّ في قلوبهم الأمل الكبير بالنّصر، وأعطتهم البشرى معنويات عالية، وتأكدوا أن المعركة ستكون يوم الجمعة، فاستعدّوا لذلك، فكانت تعبئة نفسية جيّدة.

١ نفع الطيب جزء ص ٣٦٥ / الروض المعطار ص ٩١.

المعركة الفاصلة

وصح ما توقعه المسلمون ففي السحر من يوم الجمعة ٢ ١ رجب عام ٤٧٩ هـ، هاجم الفونسو القوات الإسلامية بجميع قوته الرهيبة، هجوماً عاماً، ظناً منه أن الذي أمامه هي جميع القوات الإسلامية، فتصدى له الفرسان العشرة آلاف من المرابطين بقيادة أبي سليمان داود ابن عائشة، وعلى الرغم من عدم قدرتهم على الصمود أمام سيل الفرسان النصارى، فقد استطاعوا تحطيم حدة وعنف هجمة النصارى، وتكسير موجتهم، بعد أن خسروا كثيراً من الشهداء، وتم التراجع إلى معسكر قوات الأندلس. واستمرت صدمة النصارى رغم تكسر حذتها شديدة، فتراجعت القوات الأندلسية، ودارت عليهم الدائرة، وثبت ابن عباد وأبلى برغم ذلك بلاء حسناً، ثم أرسل كاتبه ابن القصيرة إلى يوسف يستحثه.

ولم يكن يوسف غافلاً، فقد كان يرقب المعركة، من على ربوته، ولما تأكد أن الفونسو اقتحم معسكر الأندلسيين بجميع قواته، أخذ يدفع بعض قواته إلى قلب المعركة أرسالاً لمساعدة ابن عباد، ليساعده على الثبات، ثم حمل بنفسه بقوته الاحتياطية إلى محلة الأذفونش من خلف جيش النصارى، فاقتحمها المسلمون، ودخلوها، وفتكوا فيها، وقتلوا.

ثم أمر أمير المسلمين بضرب الطبول، وزعقت البوقات، فاهتزت الأرض، وتجاوبت الجبال والآفاق ٢. ودوت: "الله أكبر" وأشعل النار في المعسكر القشتالي، فطار لب الفونسو، واضطربت قلوب النصارى، وعادوا إلى محلتهم بغضب، فصدموا جيش أمير المسلمين، فأفرج لهم عن محلتهم، ثم كرّ عليهم، فأخرجهم منها، ثم كرّوا عليه فخرج لهم عنها، ولم تزل الكرات تتوالى في خطة محكمة لأمير المسلمين لإضعاف فرسان النصارى،

١ الروض المعطار ص ٨٣ / دول الطوائف ص ٣٢٣ / أو في منتصف رجب: أعمال الأعلام ج ٣ ص ٢٤٢ / وفيات الأعيان ج ٣ ص ٣٢٩ / في حين وصفها آخرون في رمضان. العبر ج ٣ ص ٢٩٣ / وفيات الأعيان ج ٥ ص ٢٩.

٢ انظر: نفح الطيب ج ٤ ص ٣٦٦ - ٣٦٨ عن ابن خلكان ج ٦ ص ١١٦ وهو ينتقل بدوره عن كتاب تذكير العاقل وتنبيه الغافل للبياسي.

وإنهاك رجالتهم، تمهيداً للقضاء عليهم جميعاً، وفي أثناء ذلك جمع جيش الأندلس شتاته وعادت إليه مغنوياته فتحول مع الأرسال المرابطية وفرسانهم إلى الهجوم المضاد، فوقع الجيش الصليبي بين مطرقة المرابطين وسندان ابن عباد.

وقدم ابن تاشفين الجمال حيث كان لها نفع عظيم، إذ كانت خيول فرسان النصارى تجفل منها، وتلوي أعناقها عندما تسمع رغاءها، لعدم تعودها على رؤيتها. كما كان لقرع الطبول أثر في تخلخل أفئدة النصارى. فتوالى استنزاف قوة النصارى. ويوسف يحمل بنفسه وهو على فرسه يرغب في الصبر والاستشهاد ويقول بأعلى صوته:

"يا معشر المسلمين، اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة". وتمتع المسلمون بمغنويات عالية فقاتلوا قتال من يطلب الشهادة ويتمنى الموت ١، وكانت كلمات يوسف مع بسالته تعمل عملها في إذكاء حماس المسلمين،

وقيل إن لصموده وقوته وسرعة حركته، قتلت تحته في هذه المعركة ثلاث أفراس ٢ .
وأما ابن عباد فقد بذل جهداً مشكوراً، وأثبت كفاءة عالية في هذا اليوم، وصبر فعندما اشتدت صدمة
النصارى وانكشف بعض أصحابه وفيهم ابنه عبد الله، ضُرب على رأسه ضربة فلفت هامته حتى
وصلت إلى صدغه، وجُرحت يَمْنَى يديه، وطُعنَ في أحد جانبيه، وعُقرت تحته ثلاثة أفراس، كلما هلك
واحد قُدّم له آخر، وهو يقاسي حياض الموت ويضرب يميناً وشمالاً، وتذكر في تلك الحالة ابناً له
صغيراً كان مُغرماً به تركه في أشبيلية عليلاً، وكنيته أبو هاشم فقال ٣ :
أبا هاشم هشمتمتي الشفار ... فله صبري لذاك الأوار
ذكرت شُخَيْصَكَ تحت العجاج ... فلم يثنني ذكره للفرار
وهكذا اتبع يوسف في قتاله للنصارى أسلوب الكرّ والفرّ بالصّفوف المترابطة المتماسكة وهو نظام
أربك النصارى لأنهم لم يعهدوه من قبل. وبعد عديد من الكرات أدرك الأمير تضعع النصارى،
فعندئذ ضرب ضربته الأخيرة، إذ أمر حشمة السودان، فترجّل منهم زهاء أربعة آلاف، ودخلوا
المعترك بدرق اللمط، وسيوف الهند، ومزاريق الران، فطعنوا

١ روض القرطاس ص. ٩٥

٢ التواتي ص. ٢٩٧

٣ نفح الطيب ج٤ ص ٣٦٦.

الخيّل، فرمحت بفرسانها ١، وترجّل معهم عدد آخر من الأجناد: فأمن الله المسلمين وقذف الرعب في
قلوب المشركين ٢. وطحنوا بين العسكرين المسلمين. ودارت الدائرة على قوات الفونسو، وجرح
جرحاً بالغاً، إذ لصق به عبد أسود طعنه في فخذه بخنجر، فتسلّل ومعه حوالي خمسمائة فارس
مُتخنيين جراحاً وانسحب من المعركة، وفرّ جيشه، وطورد الفارون في كلّ مكان، حتى دخل الظلام
فأمر ابن تاشفين بالكفّ عن المطاردة، وتسلّل الفونسو مع جماعته في جنح الظلام فاراً إلى طليطلة،
حيث توفي أكثرهم في الطريق، ولم يدخل معه طليطلة إلا حوالي مائة فارس ٣ .
لقد استمرت المعركة يوماً واحداً لا غير، حطّم الله شوكة العدو الكافر، ونصر المسلمين، وأجزل
لديهم نعمه، وأظهر بهم عنايته، وأجمل لديهم صنعه ٤. وكلّ الدلائل (التي بيّناها) تشير أن خطة أمير
المسلمين كانت حسم المعركة بسرعة حتى وإن كُثرت الخسائر، وذلك لاستغلال حماس المسلمين
وقبل أن تفتّر همة أمراء الطوائف. وتحققت خطته بأمر الله.

واستشهد عدد كبير من المسلمين بينهم عدد من العلماء الفضلاء وأعيان الناس. ومن العلماء: ابن
رميلة صاحب البشري، وقد ترجم له ابن بشكوال في الصلّة ٥ فوصفه بأنه: "كان كثير الصدقة وفعل
المعروف، واستشهد بالزلافة مُقبلاً غير مدبر عام ٤٧٩ هـ". واستشهد العالم أبو مروان عبد الملك
المصمودي قاضي مراكش ٦. والفقير أبو رافع الفضل ولد الحافظ العالم الأندلسي الفقيه الأديب أبي
محمد بن حزم، قضى في معركة الزلافة شهيداً ٧.

وهكذا كان العلماء على المقدّمة في كافّة الميادين، حصون الأمة وقادتها، ومثالها، قدوة للمسلمين،
مثالاً صافياً نقيّاً دائماً، لا ينزويون عن الأحداث، ويبرزون في صفاء الجود والنّعمة، لا سيّما علماء
القرآن الكريم والسنة المطهّرة، وعلماء الشريعة، والتاريخ،

١ نفح الطيب ج٤ ص ٣٦٨ / ابن خلكان ج٦ ص ١١٦

٢ الحلّ الموسوية ص ٤٣ / تاريخ المغرب الكبير ص ٧٢٥

- ٣ نفع الطيب ج٤ ص ٣٦٩ / الروض المعطار ص ٩٣
٤ نفع الطيب ج٤ ص ٣٦٧ / أعمال الأعلام ج٣ ص ٢٤٤
٥ رقم ٦٨٤ / وانظر نفع الطيب ج٤ ص ٣٦٩ / الروض المعطار ص ٩٣
٦ الروض المعطار ص ٩٤ - ٩٥
٧ وفيات الأعيان ج٣ ص ٣٢٩ / وقد حدّث عن والده: سير أعلام النبلاء ج١٨ ص ١٨٦ .

والقضاء، لأن العلم إيمان وعمل، وصدارة العلم لها مسئوليتها وتكاليفها، فرحمهم الله وأجزل لهم المثوبة.

استولى المسلمون على ما كان مع الجيش النصراني الكبير من مال وسلاح، ودواب، وغيرها. وقد عفا عنها يوسف بن تاشفين وآثر بها ملوك الأندلس، وعرفهم أنّ مقصده الجهاد، والأجر العظيم، وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم ١.] وهذا درس عملي ألقاه عليهم، ولكنهم لم ينظروا إلى أبعاده ومراميه [، فأحبّوه، واجتمعوا، وكانوا ثلاثة عشر ملكاً، فسلموا عليه (بأمير المسلمين) ، وكان يدعى (الأمير) . وأرسل إلى الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله ببغداد، فأنته الخلع، والأعلام، ولقّبهُ بأمير المسلمين، وناصر الدين ٢ .

وضرب السكّة من يومئذ وجدّدها، ونقش دينارها: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) ، وتحت ذلك: (أمير المسلمين يوسف بن تاشفين) . وعلى الوجه الآخر: (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) الآية ٨٥ من سورة آل عمران، وتحت ذلك: (الأمير عبد الله أمير المؤمنين العباسي) . وفي الدائرة: تاريخ ضرب الدينار وموضع سكّه ٣ .

-
- ١ نفع الطيب ج٤ ص ٣٦٩ / الروض المعطار ص ٩٣
٢ الكامل في التاريخ ج٨ ص ١٤٣
٣ المؤنس ص ١٠٩ / وفيات الأعيان ج٧ ص ١١٥ / أعمال الأعلام ج٣ ص ٢٥١ .

نتائج الزلافة

طُيرت أنباء النَّصر الحاسم إلى سائر القواعد الأندلسية، وشاعت أنباؤه في سائر الجنبات، فاستبشر المسلمون بما آتاهم الله من عزيز نصره، وكتب أمير المسلمين رسالة عن الموقعة وتفصيلها وأوصافها إلى المعز بن باديس صاحب إفريقية، وتجاوبت أصداء النَّصر في سائر مدن المغرب وإفريقية، وعمَّ الفرح والبشر سائر الناس، فأخرجوا الصدقات، وأعتقوا الرِّقاب ١. فكانت الزَّلافة يوماً مشهوداً من أيام الإسلام، محت العار الذي لحق ملوك الأندلس من مذلة الفونسو السادس لهم. وفيه يقول بعضهم من قصيدة ٢:

لم تعلم الروم إذ جاءت مصممة ... يوم العروبة أن اليوم للعرب

١ انظر عنان- دول الطوائف ص ٣٢٨.
٢ المؤنس ص ١٠٨.

والعرب تسمى الجمعة (العروبة). ويعبر صاحب الحلل الموشية عن ذلك بقوله ١: "وكان يوماً لم يُسمع بمثله من اليرموك والقادسية، فياله من فتح، ما كان أعظمه، ويوم كبير ما كان أكرمه، فيوم الزلافة ثبتت قدم الدين بعد زلاقتها، وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس، واعتز بها رؤوس الأندلس..". فانتعشت النفوس وقوت الآمال، فأعدت للوجود الإسلامي اعتباراته، وكان يوشك على الأفول، وأظهرته من جديد في ثوب قشيب رائع، ليواصل حياته الجهادية مدى قرون أخرى.

وحزرت الزَّلافة سرقسطة وحمتها من الوقوع بأيدي القوى الصليبيين التي كانت تحاصرها عند نزول قوات المرابطين بالأندلس.

ورفعت من شأن المرابطين وأميرهم يوسف بن تاشفين أمام الرّأي العام الإسلامي، بجهادهم وذبحهم عن ثغور الإسلام، واتجهت أنظار المسلمين إليهم للتخلص من أمراء الطوائف، فاتخذ يوسف صورة المنقذ للمسلمين في الأندلس، فمهد ذلك لإسقاط ملوك الطوائف، وضمَّ الأندلس إلى دولة المرابطين في المغرب لحمايتها من هجمات النَّصارى.

والغريب أن أمير المسلمين لم يستغلَّ انتصار المسلمين الحاسم في الزلافة، فلم يطاردوا عدوهم، بل لم يحاولوا السير إلى طليطلة (الإ بعد مدة طويلة) لاستردادها وهي كانت معقد المحنة التي دفعت أمراء الطوائف للخضوع إلى طلب النَّصرة، وقد تفرَّق الجيش الإسلامي، فارتدَّ أمراء الأندلس كلٌّ إلى بلاده، في حين رحل المعتمد بن عباد إلى أشبيلية ومعه أمير المسلمين، الذي أقام بظاهر أشبيلية ثلاثة أيام، ووردت عليه من المغرب أخبار تقتضي العزم، فسافر وذهب معه ابن عباد يوماً وليلة، فحلف ابن تاشفين وعزم عليه في الرجوع.. فسير معه ولده عبد الله إلى أن وصل البحر وعبر إلى المغرب ٢. وقد علق اشباخ على موقعة الزلافة فقال ٣: "إن يوسف بن تاشفين لو استطاع أن يستغلَّ نتائج انتصاره في معركة الزلافة، لكانت أوروبا الآن تدين بالإسلام، ولرأينا القرآن يدرس في جامعات موسكو وبرلين ولندن وباريس". ولسنا نحن بصدد لو فإن لو تفتح عمل الشيطان. ولكننا نتساءل: لماذا لم يستغل المسلمون انتصارهم؟! ولنحاول أن نتلمس الجواب من بين الأحداث السابقة واللاحقة.

١ ص ٤٧، عبد العزيز سالم- المغرب الكبير ص ٢٢٨.

٢ نفح الطيب ج٤ ص ٣٧٠/ الروض المعطار ص ٩٣.

٣ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ١١٧.

إنّ الذي يتعمق في تاريخ الأندلس يجد أنّ بذور التفكك والانحلال قد أصابت البنية الإسلامية هناك، ولم يعد المسلمون قادرين على الاندفاع في وثبات هادفة مركزة، فقد أصبح همهم الدفاع، وفقدوا روح الهجوم والمبادرة والمفاجأة، كما اتخذ الجهاد صورة غير الصورة التي كان عليها أيام الفتح الإسلامي الأول، فقد اتصف بكثير من صور اليأس والانتحار، وهكذا فقد الجهاد معناه من إزالة الحواجز في طريق الدعوة، وتبليغها ونشرها. وأصبح همهم الحفاظ على ما هم عليه من رفاهية العيش ومن الانغماس في الملذات، فإذا اشتدّ الخطر نهضوا بحماس أيّ ثم يعودون للفتور السريع مستسلمين مستخدين، وقد أدرك أمير المسلمين ذلك تماماً، ولذا خطط لإنهاء المعركة وحسمها في يوم واحد قبل أن تفرّ همة أهل الأندلس، وقبل أن تظهر بين ملوكهم عواطف الأثرة والحسد، لتتغلب على عوامل الاتحاد والقوة، فتكون كارثة على المسلمين. وقد رأينا موقف ابن سكوت وابن المعتمد قبل عبور المجاهدين! وظهر بعد الزلاّقة إذ تحالف بعضهم سراً مع الفونسو السادس أملاً في طرد المرابطين، كما فعل عبد الله بن بلكين بن باديس أمير غرناطة ١. فوجود ملوك الطوائف كان العامل الأول الذي حال دون استغلال المعركة لصالح الإسلام في أوروبا.

ثم إن يوسف أدرك أنّ القوة التي يقابلها في الأندلس ليست قوى أسبانيا النصرانية بل قوى أوروبا بأكملها تحركهم كنيسة روما في حملات صليبيّة لا تهدأ، فوضع استراتيجيته في عدم التّقدم إلّا بعد تأمين خط الرجعة تماماً. وهذا ما طبقه منذ دخوله الأندلس.

ثم كان ورود خبر وفاة ولده أبي بكر بن عمر وكان قد استخلفه في مراکش وتركه مريضاً بسبته، فخشي الفوضى في المغرب فقرّر العودة فوراً إلى المغرب ويؤكد لنا صاحب القرطاس أنّه لولا ذلك المصاب ما عاد يوسف بمثل هذه السرعة ٢

عاد يوسف إلى المغرب ليبدأ خطأً جديدة، وترك قوات مرابطية للجهاد تقدّر بثلاثة آلاف، رهن تصرف المعتمد بن عباد بقيادة قائده الشجاع سير بن بكر. بعد أن قدم النصح بحرارة لملوك الطوائف بنبذ الفرقة والعمل للوحدة ٣.

١ التبيان لعبد الله الزيري ص ١٠٨.

٢ عنان- الطوائف ص ٣٢٩، عن روض القرطاس ص ٩٨.

٣ التبيان- لعبد الله الزيري ص ١٠٦، اتهم المستشرقون يوسف بن تاشفين بسوء النية، والطمع في خيرات الأندلس، والقضاء على ملوك الطوائف، من عبارات التقطوها من عبد الواحد المراكشي في المعجب في الصفحات ١٣٢، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧ وما بعدها. ومن المعروف أنّ عبد الواحد أملى كتابه من ذاكرته. وفيما بيّناه خلال هذا البحث ما يدل على هدف يوسف: الجهاد وحماية الإسلام. انظر: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ج٢ ص ٢٩٢ وما بعد.

أما النصارى فقد بدأوا بتغيير مخططاتهم التي رسمها لهم الفونسو السادس لقتال المسلمين في الحرب التي دعواها حرب الاسترداد ١. وأخذت الكنيسة هي التي تضع الخطط وتتابع تنفيذها، واستسلمت أسبانيا النصرانية لأحضان الكنيسة الرومانيّة المتعصبة، وخضعت لسياستها الحربية،

بأقصائها جميع الرهبان الذين قد يزددون في السّير مع ما تحدّده الكنيسة دون قيد أو شرط. ودفعت الأباء البندكتيين بزعامة الراهب الفرنسي برنار لمحاربة المسلمين، واعتبرت حرب المسلمين مقدّسة يعادل أجر المشارك فيها أجر الذين دفعتمهم إلى قلب العالم الإسلامي في المشرق بعد ذلك. بل إن البابا اسكندر الثاني أصدر مرسوماً حرّم فيه على رجال الدّين الأسبان المشاركة في الحروب الصليبية في المشرق، وأكّد أن محاربة المسلمين في أسبانيا تفوق أهمية وقدراً محاربتهم في المشرق. وهكذا تمكّنت الكنيسة من الرّجّ بكثير من نصارى أوروبا في صفوف مقاتلة ملوك أسبانيا، بحيث أصبح معيّنهم لا ينضب من الرّجال والمال والسّلاح. فاستطاع الفونسو بسرعة مذهشة أن يحشد جيشاً جديداً جاءت إمداداته من فرنسا ونورماندية وألمانيا، والفلاندر بروح صليبية، ولم يمض عام واحد على هزيمته حتى تمكّن من استعادة قواه، وأخذ المبادرة وبدأ بعمليات الهجوم، ونقل ميدان نشاطه إلى شرق الأندلس، وتحالف مع الكامبيدو، وأنشأ حصن اليدو (البيط) بين مرسية ولورقة، وافر المناعة ضخماً، شحنه بالسّلاح والمال والرّجال، وبلغت حاميته ثلاثة عشر ألفاً منهم ألف فارس، بالإضافة إلى أنه ضم جماعات نصرانية التجأوا إليه، واتّخذة النّصارى قاعدة للإغارة على أراضي مرسية والمريّة، وبنّوا الرعب والفرع في قلوب المسلمين في تلك الأنحاء، وعجزت القوات الأندلسية عن ردّ عدوانهم، فضجّ أهل تلك الأنحاء وعادت الوفود من أهل الأندلس تترى على أمير المسلمين وخاصة من بنسية ولورقة ومرسية، فكثرت الصرخ، وكثرت رسل الإنجاد والغوث ٢. وتلقّى الكتب من فقهاء الأندلس وأعيانها، يلحفون في رجاء الإنجاد والغوث

١ درج كثير من المؤرخين المسلمين على تسمية الحرب الصليبية ضد المسلمين في الأندلس: (حرب الاسترداد) كما فعل مؤرخو النصارى، وهذا تعبير خاطيء لأن المسلمين عندما فتحوا الأندلس لم يسلبها السكان النصارى أراضيهم ولم يخرجوهم من ديارهم، بل نشروا عقيدة الإسلام فأسلم الناس طوعاً وتسلموا راية الإسلام مع العرب والبربر المسلمين. والنصارى الذين قاموا بالهجوم على مسلمي الأندلس في أكثريتهم من نصارى أوروبا، فهم في الحقيقة الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم أو أجبروهم على التنصر أو أبادوهم!!.

٢ عنان- الطوائف ص ٣٣٢ / الحلل الموشية ص ٤٧ و ٤٨.

لقمع بغى النّصارى والاستيلاء على اليدو مركز بغيمهم، وعبر ابن عبّاد بنفسه مع بعض خاصّته والتمس منه العون ١.

جاز أمير المسلمين البحر للمرة الثّانية بقواته في ربيع الأول عام ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م وتلقّاه ابن عبّاد في الجزيرة الخضراء، وبعث بكتبه إلى ملوك الطوائف ورؤسائهم يستدعيهم جميعاً للجهاد، فوافوه عند حصن لبيط، حيث ألقى عليه الحصار، وسلّط عليه المسلمون آلات الحصار الضخمة، لمدة أربعة أشهر، إلى أن استولى عليه الأمير وخرّبه ٢.

وفي مدّة الحصار الطويل هذا أحسن أمير المسلمين بالاستيلاء لما شهدته من أحوال أمراء الطوائف المشاركين في الحصار، فقد كان الخلاف والتنافر والوقعية بين أولئك الأمراء الطامعين، كما وصله خبر تفاهم ابن رشيق أمير مرسية مع ملك قشتالة سراً، وأنه قد دفع إليه جباية مرسية، وأنه يعاون حامية الحصن في الخفاء. وأخذ أمراء الطوائف يتراشقون التّهم أمام يوسف ويحكّمونه في منازعاتهم، حتى ضاق ذرعاً بذلك ٣.

عاد أمير المسلمين إلى المغرب وهو على يقين أنّ وجود ملوك الطوائف معناه ضياع الإسلام في هذه البلاد، وكان قد ترك جيشاً مجاهداً من المرابطين من أربعة آلاف فارس تحت إمرة داود ابن عائشة

ليعمل في منطقة مرسية وبلنسية، وأخذ يعدّ خطته لاستئصال شأفة ملوك الطوائف. وأثناء ذلك بلغه توافقهم لقطع المون والمدد عن عساكره ومحلاته التي تركها بالأندلس، فسأه ذلك كثيراً، وبلغه أن بعضهم عاد إلى مصادقة الفونسو ومالاه كعبد الله ابن بلكين، والمعتمد بن عباد نفسه، فشاور الزعماء والفقهاء وأعيان الناس، وتلقى فتاوى من فقهاء المغرب والأندلس ومن أكابر فقهاء المشرق بوجوب خلع ملوك الطوائف ٤.

جاز أمير المسلمين إلى الأندلس للمرة الثالثة في أوائل عام ٤٨٣ هـ، واتّسمت حملته بطابع الجهاد، ليتأكد من مواقف ملوك الطوائف، فسار تَوّاً إلى طليطلة واجتاح في طريقه أراضي قشتالة، ولم يتقدم أحد من أمراء الطوائف، لمعاونته أو السير معه، وعاث المرابطون في أحواز طليطلة، وخرّبوا ضياعها، وانتسفوا زروعها، ثم ضربوا حولها الحصار، وبداخلها

١ المغرب الكبير ص ٧٣٠

٢ تاريخ إفريقيا الشمالية ج٢ ص ١١٤ في حين تذكر المصادر الأخرى أن أمه خاب في الاستيلاء عليه فآثر الانسحاب، وإن الفونسو خربه بعد ذلك حين قرر إخلاءه بعد فقد أن حاميته حيث لم يجد فيه سوى مائة فارس وألفي راجل عام ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م / انظر: عنان- الطوائف ص ٣٣٨.

٣ انظر: المغرب الكبير ج٢ ص ٧٣٠.

٤ انظر: مذكرات الأمير عبد الله الزيري / وانظر: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ج٢ ص ٢٩٣.

الفونس وحليفه سانشو، ثم تراجع أمير المسلمين عنها لصعوبة فتحها، وليصفي حسابها مع ملوك الطوائف، لتوحيد كلمة الأندلس، وتكوين جبهة أندلسية مغربية لمواجهة الأخطار الصليبية. عاد يوسف إلى المغرب في شهر رمضان عام ٤٨٣ هـ، وفوّض إلى قائده الكبير سير اللمتوني شنون الأندلس، وتصفية الحساب مع ملوك الطوائف، حيث أمده عام ٤٨٤ هـ بأربعة جيوش مرابطية لمنازلة الطوائف. وقام بالمهمة ولم يستثن منهم سوى المستعين بالله أحمد ابن هود صاحب سرقسطة لقيامه بحقّ الجهاد ١. وكان آخر من استسلم: أشبيلية يوم ٢١ رجب عام ٤٨٤ هـ، وسبق ابن عباد أسيراً ليقتضي بقية حياته في اغمات ٢. واستراحت الأندلس الإسلامية من ملوكها الضعاف، وعاشت في ظلّ المرابطين سعيدة في رفاهية، وعلى أحسن حال ودخلت مرحلة جديدة من القوة، وكُتب على المرابطين أن يحملوا راية الجهاد أمام هجمات الصليبية الحاقدة، دون كلل أو ملل في الوقت الذي اشتدّ فيه ساعد النصارى بما تدفق عليهم من فرسان الصليبية، واتسع نطاق الحروب الصليبية، فاستولى النورمان على صقلية نهائياً عام ٤٨٤ هـ ٣.

وهاجم الفونسو جيّان في الأندلس في جموع صليبية عظيمة عام ٤٨٥ هـ فالتقاه المسلمون فانهزموا، ثم تراجع الناس وثبتوا، ونزل النصر وكان ملحمة كبيرة قتل فيها خلق كثير من النصارى ٤. وهاجم النصارى بلنسية عام ٤٨٨ هـ، واستسلمت بعد حصار دام ٢٠ شهراً ٥ وأحلّ النصارى بأهلها أنه المحن وامتحنوا بأفانين البلاء، وقام الكامبيدو بعمليات الحرق والتهجير، فحركت مشاعر المسلمين كما حدث يوم سقوط طليطلة، وقد صور الشعر الأندلسي هذه المأساة، يقول الشاعر البلنسي المعاصر أبو اسحق بن خفاجة (٤٥٠ - ٥٣٣ هـ) ٦:

١ الحلل الموشية ص ٧٣

٢ نفح الطيب ج٢ ص ٤٥٣ / الإحاطة في أخبار غرناطة ج٢ ص ٨٢ / العبر ج٢ ص ٣٥٨ - ٣٥٩ /

الكامل ج ٨

ص ١٧٧ / الموثق ص ١٠٩ / عنان- الطوائف ص ٣٥٤ .

٣ العبر ج ٢ ص ٣٤٧ / الكامل في التاريخ ج ٨ ص ١٥٧ .

٤ العبر ج ٢ ص ٣٤٩ / الكامل ج ٨ ص ١٦٠ .

٥ البيان المغرب ج ٧ ص ٣٥٦ / نفح الطيب ج ٤ ص ٤٥٥ / أعمال الأعلام ج ٢ ص ٢٠٤ .

٦ نفح الطيب ج ٤ ص ٤٥٥ .

عانت بساحتك الظبا يا دار ... ومحا محاسنك البلا والنار
فإذا تردد في جنابك ناظر ... طال اعتبار منك واستعبار
أرض تقادفت الخطوب بأهلها ... وتمخضت بخرابها الأقدار
كتبت يد الحدثنان في عرصاتها ... لا أنت أنت ولا الديار ديار
وقد سير يوسف جيشاً بقيادة أخيه محمد بن تاشفين لاستعادتها، فانهزم المسلمون أولاً، ثم تمكنوا من
استعادتها عام ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م بقيادة الأمير المرابطي أبي محمد مزدلي (استشهد بالأندلس عام ٥٠٨ هـ)
١ .

وفي هذه الفترة تبلغ الحرب الصليبية ذروتها شرقاً وغرباً، فسقطت بيت المقدس (مسرى رسول الله
ﷺ وأولى القبلتين) عام ٤٩٢ هـ في أيدي الصليبيين، ودقت الأجراس في كل أنحاء أوروبا فرحاً بذلك
٢، واستخفت الطرب بالبابا باسكال الثاني فكان مرسومه بإعلان الحروب الصليبية في أسبانيا ضد
المسلمين ٣ .

وعلى ذلك فإن أثر الزلافة في إثارة الحروب الصليبية لا يقل عن أثر ملاذكرد. وإثارة الحروب
الصليبية هذه دعا النصارى المعاهدين والذين كانوا يعيشون في ظلّ الحكم الإسلامي بأمن ورفاهية،
يقومون بالأعمال التخريبية داخل المجتمعات الإسلامية، فاتصلوا بطرقهم الخاصة بالفونسو يعلنون
استعدادهم ليكونوا أدلاء على عورات المسلمين، وأن يقدموا له حوالي ١٢ ألفاً من المقاتلين،
وشجعوه على غزو المسلمين ٤ وكانوا عوناً له .

وتوفي أمير المسلمين عام ٥٠٠ هـ عن عمر ناهز المائة ٥، ولم يمنعه السن الكبير من الجهاد
والعناية بشئون دولته، والسهر على رعيته، فكان رحمه الله من أهل الخير والافتداء، وورثه ابنه
علي بن يوسف الذي استمر في سيرة أبيه من القيام بالعدل وتولي الجهاد ٦ . في الأندلس.
والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبي الهدى والرحمة .

١ البيان المغرب ج ٤ ص ٤١، ٤٢، ٦٠ .

٢ اشباح- تاريخ الأندلس ص ١١١ .

٣ انظر التواتي ص ٤٢٢ - ٤٢٤ .

٤ اشباح ص ١٤٧ / التواتي ص ٦٠٤ .

٥ العبر ج ٢ ص ٣٨١ / ابن خلكان ج ٧ ص ١١٥ وقيل ابن بضع وثمانون سنة / سير الأعلام ج ١٩
ص ٢٥٤ .

٦ المونس ص ١٠٩ .